الدكتور على ابراهيم باشا

كان أول عهدى به منذ أكثر من ربع قرن حين جلست منه مجلس الطالب المبتدئ من أستاذه الضخم ، حيث يباح للطالب أن يسرف فى الاعجاب باستاذه ؛ وآخر عهدى به قبيل وفاته بساعات حين جلست منه مجلس الصديق أشير عليه بما يخفف عنه بعض ألمه . فما كان حبى له وتقديرى إياه فى العهد الأول بأكثر منه فى العهد الأخير ، ولم يزدنى طول خبرتى به إلا إعجاباً . ومن الناس من تراه أعظم مايكون عن بعد، تتضاءل معه هفوات الرجال، ومنهم من لاتتبين طيب معدنه إلا عن قرب . وكان على ابراهيم فى كلتا الحالين موضع إجلال أقرب الناس إليه وأبعد الناس عنه .

ولعلى لا أجد وصفاً له أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، فقد شيد كثيراً وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً فى مصر . وكان يرى أن ينشئ أولا وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأوعلى الزمن أن يستكمل النقص . وكانت فيه صفات تدق على غير البنائين ، فكان يضع نصب عينيه غايته لا يحيد عنها لأى أمر من الأمور ، وكان يرى أن الانشاء أهم كثيراً من المبادئ والنظريات . وكان أقدر الناس على التدبير الممتد لا تزعجه العقبات ؛ فان لم يستطع تذليلها احتال لها حتى لا تقف دون غايته ؛ وإن بعدت . فهو مثل حىّ لنوع من العقليات العملية التى لم ينتج الشرق منها الكثيرين إلا أخيراً ، وأنموذجاً للتفكير الموضوعى البحث الذى اعتاد الناس أن يروه أكثر ما يكون فى الأمم الشمالية ، حتى كاد يعدّ صفتهم الأولى .

وأكبر ماشيد على ابراهيم فى مصر الطب الحديث؛ فكلنا مدينون له بما هيأ لنا من وسائل إتقان ذلك العلم . ولكنا اهتدينا بهديه واحتذينا طريقته ، ولم يكن

له هو مثال يحتديه ، بل اختط لنفسه سبيلا مبتكراً وحملنا عليه ، فلم يشذ أحد منا عنه حتى الآن . ثم أحكم صلتنا بالعلماء الغربيين ومهد السبيل للكثيرين منا حتى لا نقل عن هؤلاء علماً وعملا ، وحبانا بكل ما أوتى من وسائل التشجيع ، وضرب لنا مثلا حياً لما يجب أن تكون عليه صلاتنا بهؤلاء العلماء . فقد كان أحب الناس إلى كبار الجراحين العالميين لما شاهدوه من علمه وفنه وحدبه على رقى الطب والأطباء . وله الفضل الأول أن أصبح الطب فى مصر مصرياً .

وهو عندنا جراح قبل كل شئ ، وجراحته صورة من نفسه . فكانت طريقته فى الجراحة طريقة الفنان : كل عملية له عملا فنياً جميلا . وكان يكره أن تلهيه صغار الأمور عن كبارها ، وكان لا يريد السرعة و إن كان سريعاً ، ولايريد أن يدل على المهارة و إن كان ماهراً ، ولا يتوخى إلا الوصول إلى غايته من أسهل الطرق . وعنى عناية خاصة بجراحة البلاد الحارة ، وله فيها مبتكرات لم تزل عندنا المرجع الأكبر لهذه الأمراض .

وكلية الطب كلها من إنشائه . وعهدى بها وهى صغيرة مبانيها ، ضئيلة معاملها ، فقيرة فى الرجال والمال . وهى اليوم من أكبر المؤسسات ، ومعاملها ضخمة ، ورجال العلم فيها عديدون ، و إنتاجها كثير . ثم أنشأ الجمعية الطبية ورأسها طول حياته . وبنى دار الحكمة وأنشأ مجلتها وجعلها ندوة الأطباء . ثم أحكم الصلة بينها وبين البلاد العربية ، فأصبحت مؤتمراتها حدثاً علمياً لا يعدله حدث آخر فى الشرق الأدنى كله . ثم أنشأ نقابة الأطباء وبذل فى ذلك جهداً مضنياً . وقامت دونه عقبات كبرى مدى عشرات السنين ، فلم يهن له عزم ، وساوم الهيئات المناوئة له كثيراً حتى تم له ما أراد من تنظيم طائفته ، وكانت من أعز أمانيه عليه .

ثم وجه همه إلى النواحى العلمية الأخرى ، وانتخب عضواً فى أكثر المجامع العلمية فى مصر . وكان له النصيب الأكبر فى تكوين الجامعة ، وكان يعدها عمله الأول . وكان حريصاً على أن لا يقف دون رقيها شئ ، ولم يبخل عليها يوماً بجهد أو مال ، وما زال بها حتى أصبحت ما هى عليه الآن . وكان فخوراً بها غاية الفخر . وله النصيب الأكبر فى الدعوة إلى إنشاء جامعة فاروق وتكوينها ، ولو امتدت به الحياة لدعى إلى جامعة أسيوط .

ثم شغل بالحياة الاجتماعية ، ورأس عدة مشروعات غايتها الاصلاح

الاجتماعى . وكان رأيه فى ذلك أن أى عمل ، وإن قل ، فهو كسب لبلاد لم تعهد من قبل عناية بالأمور الاجتماعية ، وإن إحياء الوعى الاجتماعى أمر يجب أن نعنى به جميعاً . فهذه المؤسسات الصغيرة لها دلالة كبرى ، وأثر يفوق كثيراً ما تؤديه من خدمات .

أما المؤسسات الكبرى التى رأسها فأهمها جمعية الهلال الأحمر . وأول صلته بها حين كان جراحاً موفداً من قبلها مع بعثة كبيرة إلى تركيا فى حرب البلقان ، ولم تنقطع صلته بها حتى أصبح لها رئيساً ، فأحياها وأصبحت من مؤسسات القطر الناجحة نجاحاً تاماً . ولم تكن هناك مؤسسة اجتماعية لها صلة بالطب إلا وهو رأسها المدبر : فقد حمل عبء مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية إلى أن قامت الحرب ، وساهم فى إدارة جمعية الاسعاف .

هذا ماخدم به الطب والعلم والاجتماع ، أما مانحن مدينون له به شخصياً فكثير جداً . وليس فى مصر طبيب لم يجد فيه الصديق الأوفى والأب الناصح ، وليس منا من لم يلجأ إليه فى شدة ، فوجد منه العطف والنصح السديد . وكنا جميعاً نعلم حين يجد الجد أن عنده الرأى الأسدّ .

وكان فوق ذلك الصديق المرح الذى تتلقفه المجالس لظرف حديثه وسرعة بديهته ، حاضر النكتة ، وكان أسرع الناس تفكيراً وأخصبهم ذهناً فى غير عنف ، تواتيه الآراء الصائبة فى غير جلد ولاعناء . وكانت نفسه كريمة صافية من كل ما يشوب صغار الناس ، خالية مما اصطلح الناس على تسميته العقد النفسية . وكان همه أن ينتج وأن يقوم بما يستطيع من خير ما دام له إليه سبيل .

أما الناحية الأخرى من حياته فهى حبه للفنون الاسلامية ، فقد جمع من السجاجيد القديمة والخزف القديم مايعد من خير المجموعات التى لدى الأفراد ، وكانت مصدر سرور له فى حياته وموضع شكواه فى مرضه الطويل ، ولم يكن فى مصر معرض فنى إلا وله فيه نصيب كبير .

وليس ذلك كل ما يقال عن أعماله ، فهى كثيرة يقصر دونها الحصر ، وفى بعضها ما يكفى أن يضعه فى الطبقة الأولى ممن خدموا بلادهم خدمات ستبقى على الزمن عنوان نهضتها وأساساً ثابتاً لرقيها .

محمد كامل حسين
أستاذ الجراحة بكلية الطب